اللقاء التاسع من لقاءات التفسير
في شهر رمضان المبارك من عام 1437هـ

الجزء الحادي عشر: سورة يونس
الآيات من 15 – 23

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتي الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

/!#/http://tafaregdroos.blogspot.com

تنبيهات هامة:

– منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

– هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)

/http://www.muslimat.net

– الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله..

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأجمعين.

نبدأ لقاءنا في هذا اليوم الذي نسأل الله عزوجل أن يكون يوم مُباركًا علينا، نحتسب عليه صيامه وقيامه وقراءة القرآن فيه وفهم معانيه.

ونبتدئ بمناقشة آيات من سورة يونس فيها تعنّت أهل الباطل على رسولنا صلى الله عليه وسلم، وهذه سنة ماضية ، فإن الكبر والهوى لما يمنعان العبد عن الاستقامة على دين الله وعلى ما أمر الله، تجده يُجادل في الحق ليردّه ويقوي بحججٍ باطله .

وهذه الحالة إن كانت في الأصل هي وصف لأهل الباطل أهل الكفر والضلال، لكن للناس نصيب منها حتى لو أسلموا، فإن كثيرًا من الأحيان يقع في النّفس كِبْر على الحقّ فيُجادل الإنسان ويخترع أدلة تبطل الحقّ لأنه لا يُوافق هواه.

فنحن نقرأ الآيات معتقدين أنّ هذا وصف أهل الكفر وأنهم بهذا عاملوا نبينا صلى الله عليه وسلم وأنه هكذا أجابهم، ونخاف على أنفسنا أن تكون هذه الخِصلة موجودة في نفوسنا ولو شيء يسير منها.

يقول الله عزّ وجلّ في وصف حالهم: **{وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بيّنات}** معناها أن هذه الآيات غاية في الوضوح فلمّا وصف الله عزّوجلّ هذه الآيات أنها بيّنات، وأخبرنا عن وصف هؤلاء القوم أنهم لا يرجون لقاءنا، **{قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا}** يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم: **{ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ}** معناها أنهم يردون على النبي صلى الله عليه وسلم الآيات التي وصفها أنها بيّنات، لأن الله قال: **{وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بيّنات}**.

وهذا أسلوب من أساليب تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم، يريدون أن يقولون أن هذا القرآن غير مُوحى وأنه ليس من عند الله، فيريدون يُقنعوا أنفسهم أنّه من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، بمعنى أن الرسول –صلى الله عليه وسلم– أتى به من تلقاء نفسه، ولهذا قالوا له يعني جعلوا من تكذيبهم أن يقولوا له : **{ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ}**، كأنّهم يقولون: تريد منا أن نقبلك ونتّبعك غيِّر هذا القرآن ووافق هوانا!

فكانوا يريدون منه أن يأتي لهم بمثل كُتُب القُصّاص، وقد اشتهر عندهم أن الفُرس لديهم كتب ملاحم وقصص، فهم يريدون ما يسليهم ويوافق هواهم، وهذا كثيرًا ما نسمعه في الدعوة إلى الله، فإن الناس لما يسمعون الوعظ والإرشاد والتعليم يجري على لسانهم كلمات من وحي شياطين الإنس والجن، فيقولون: لا تكلمونا بأسلوب وعظي ؛ تقليلًا من شأن الوعظ ! وهذا ما ينتهي عنده العجب، فإن الموعظة تُحرك القلوب وتصلح النفوس لكن الشأن هو الشأن، كأنهم يقولون : **{ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ}**.

سنعيد على أنفسنا هذه المسألة المهمة وهي أن الآيات في الكلام عن أهل الكفر في التعامل مع القرآن والرسول –صلى الله عليه وسلم–، لكننا نسمعها ونفهمها ونزكي أنفسنا أن تكون صفة من صفات هؤلاء في أنفسنا، فإننا نقبل القرآن ونقبل ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم.

وكما تبيّن لنا الله عزوجل يقول: **{وَإِذا تُتلى عَلَيهِم آياتُنا بيّنات}**، وهذا لزيادة التعجيب من طلبهم في تبديل الآيات وتغييرها. وهم قالوا: **{بِقُرآنٍ غَيرِ هذا}** يعني كأنهم يقولون: هات شيء يحلّ محل القرآن، وكما تعلمون القرآن اسم علم على الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، فكأنهم يقولون ائتِ بِغَيرِ هذا مما تسموه قرآن، فإما تأتي بغير هذا **{أَوْ بَدِّلْهُ}**، يعني أبقيه مع تبديل محتواه، وهذا الكلام منهم: إما أن يكون جِدًّا أو يكون هزل واستهزاء.

وعلى كلا الحالتين الله عز وجل أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم بما يدفع شبهتهم إ ن كانوا جادين، وبما يردّ على استهزاءهم لو كانوا مستهزئين، فهؤلاء المشركين الذين لا يرجون لقاء الله عز وجل قد أتى وصفهم في أول السورة يعني في الآية السابعة من نفس السورة، أخبر سبحانه وتعالى عن هؤلاء فقال : **{إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}** ، وهنا عاد السياق يذكرهم مرة أخرى سمعنا أن هذه الآيات إذا تليت عليهم **{قالَ الَّذينَ لا يَرجونَ لِقاءَنَا ائتِ بِقُرآنٍ غَيرِ هذا أَو بَدِّلهُ}** إذن هؤلاء الذين لا يرجون لقاء الله عز وجل الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يردّ عليهم.

لايرجون لقاء الله معناها أنهم لا يؤمنون باليوم الآخر، فردّ النبي –صلى الله عليه وسلم– على اقتراحهم بكلام جامع يُفهم من ورائه امتناع تبديل القرآن من جهة النبي –صلى الله عليه وسلم–، فلا سيُغير كلماته ولا سيُبدل أغراضه، وقد جاء الجواب في

أبلغ صيغة في النفي، فقال: {مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ} ليس بيدي أن أفعل هذا، {مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي} إذن معناه أن الأمر ليس إليّ، وليس من جهة نفسي التبديل، بل أنا مُبلغٌ لا مُتصرف.

{إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ}، هذه الجملة بمثابة التعليل، يعني لماذا ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي؟ لأني أتبع ما يوحى إلي، {أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ} فأنا أُبلغ الحاصل ، واتباعي يُلزمني بعدم التصرّف، فإن الماشي على طريق مُتبعٌ فيه من يَسبقه لا يُجاوز اقتفاء أثره.

والنبي –صلى الله عليه وسلم– قال: {إِنْ أَتَّبِعُ} فكأن الصورة أن هناك من يسبقه وهو يمشي خلفه في إثره، فلا يجاوز مواطن اقتفاءه.

ثم وهو الرسول الكريم يقول: {إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}، يعني عصيته بأي شيء هنا؟ بتبديل القرآن، فهو صلى الله عليه وسلم يخاف، وهذا دليل على أدبه وعلى عبوديّته، {إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} فهو –صلى الله عليه وسلم– قد جمع أعظم المقامات مقام العبودية والرسالة ، فمقام العبودية يوجب الخوف . ومقام الرسالة يوجب تبليغ ما أُوحيّ إليه.

وفي هذا المقام جمع بين الأمرين، قال: {إن اتبع إلا ما يوحى إلي}؛ لأني رسول {إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}؛ لأني عبد، فلا أظن بالرسالة أن أفوق منزلة العبوديّة بل بالرسالة أتى شرف العبوديّة.

ثم الله عزّوجلّ يأمره أن يجيب عن اقتراحهم الذي يتضمن تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم أنه رسول من عند الله، {قُل لَو شاءَ اللَّهُ ما تَلَوتُهُ عَلَيكُم}، هذا جواب لكن جواب على ما وراء الطلب، هم طلبوا هذا الطلب؛ لأجل أن يقولوا ل لنبي صلى الله عليه وسلم هذا الكلام ما ناسبنا غيره، طالما أن الكلام تأتي به من عندك، وهذه تهمة عظيمة في حقه صلى الله عليه وسلم. فأجاب الله على مضمون كلامهم فقال: {قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ}، ومعنى هذا أنه مُرسل من الله تعالى وأنه لم يختلق القرآن من عنده، فجعل تقدير الله هو سبب أن يتلوه عليهم ؛ لأن الله تعالى لو شاء أن لا أتلوه عليكم ما تلوته، وهذا معناه أن كل أهل الإيمان لابد أن يكونوا واثقين في أن هذا كلام ربّ العالمين أوحاه سبحانه وتعالى إلى جبريل وجبريل عليه السلام أوصله للنبي الكريم–صلى الله عليه وسلم.

{لَو شاءَ اللَّهُ ما تَلَوتُهُ عَلَيكُم وَلا أَدراكُم بِهِ} معناها أن لو شاء الله أن لا آتيكم بهذا القرآن لما أرسلني به، ولبقيت على الحالة التي كنت عليها من أول عمري ؛ لأنه يقول {فَقَد لَبِثتُ فيكُم} يعني ليس بالشيء اليسير، أربعين عامًا كنت بين ظهرانيكم، مدة طويلة أربعين سنة ليس بالوقت اليسير ، رأيتم نشأتي، ورأيتم عدم حُبي للتعاظم ، ورأيتم أني لم أشتهر ببلاغة ولم أكن خطيبًا ولا شاعرًا فيشتبه عليكم ذلك مع القرآن.

يعني لو كان هذا وصف النبي –صلى الله عليه وسلم– كان أصبح هذا من الحالات المعتادة، فهذا نوع بلاغة كلام وهذا نوع بلاغة كلام، إنما كل النشأة التي أمامهم كان واضح فيها:

١. البعد عن تعظيمه لنفسه أو بروزه بينهم.

٢. أنه لم يكن ممن دخل أبواب المباراة والمبارزة في الفصاحة والبلاغة.

وهذا ليس معناه أنه لم يكن موصوفًا بصفات الكمال البشري، لكن يقصد لم يطلب العظمة، لم يكن يدخل مضمار المنافسة معهم في شؤون الدنيا بل كان يعتزلهم –صلى الله عليه وسلم–.

إذن هذا استدلال على أن هذا الكلام لا يُمكن أن يكون من كلام البشر، المفروض لما يفكروا في هذا يقولون إذًا ما أرسلك إلا الله إلينا؛ لأننا نعرف حالك ونعرف قدرتك ولا نظن فيك إلا خيرًا.

وهنا أهل العلم يقولون أن كلمة {لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ} فيها من البيان العظيم ما يدل على بلاغة هذه الإجابة؛ لأن تلوته معناه سيتضمن :

- تاليًا كلامًا
- ومتلوًا
- وباعثًا بذلك المتلو.

معناه أن الانسان لو كان يقول كلامه هو لما يأتي يتكلم لا يقول سأتلوا عليكم كلامي، وإنما يأتي مندوب الملك أو الأمير فيقول: سأتلوا عليكم البيان الملكي ، إذن معناه كلام الغير لما يقرأه المرسول يُسمى تلاوة فلما قال تعالى أمر نبيه {لَو شاءَ اللَّهُ ما تَلَوتُهُ عَلَيكُم} عُلم أن هذه الكلمة بنفسها دليل؛ لأنها تتضمن تاليًا كلامًا ومتلو وباعثًا بذلك المتلو.

فمعناها أن هذه فيها مُعجزة المقدرة على تلاوة الكتاب مع أنه أميّ، خصوصًا أن أسلوب القرآن غير الأسلوب الذي عرفته العرب، وأيضًا أن ما يتضمنه القرآن من معاني لا يمكن أن يكون من كلام الخلق، فإن فيها أخبارًا لا يمكن لأحد من الخلق أن يُخبر عنها بهذه الصيغة، فتسمع في القرآن ما يدلك على أن هذا كلام الله، ما يدلك على أن الخطاب منه للأشياء وليس بكلام الخلق أبدًا، فهل أحد من الخلق يتجرأ أن يقول: {ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت: 11] لا يمكن لأحد أن يفكر في هذا المعنى، فضلًا عن أن يتكلم به، فضلًا عن أن يأتي بهذه البلاغة!

على كل حال هذه الآية فيها سرّ كلمة "التلاوة" خاصة هنا، وأنها مُشْعِرةٌ بإبلاغ كلام من غير المبلغ ففيها الدليل واضح.

إذن النبي –صلى الله عليه وسلم– أُمر أن يقول أنا قضيت معكم هذا العمر كله ولبثت وأقمت معكم، ومع ذلك ما رأيتم علي ما يمكن أن تتهموني به فتجعلون هذا الكلام كلامي.

ثم خُتمت الآية بقوله تعالى: {أَفَلَا تَعْقِلُونَ}، وهي للإنكار والتعجيب من بيان الدليل و من فقدانهم للعقول، فكأنه يقال: {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} أن مثل هذه الحال التي كان عليها النبي –صلى الله عليه وسلم– من الجمع بين الأميّة والإتيان بهذا الكتاب الذي تشهدون أنه في غاية البلاغة من جهة ألفاظه، ومن جهة معانيه مُحال أن يتكلم بها أحد من الخلق، ولو اجتمع أهل زمانكم لألفاظه لا يأتون بمثله، فكيف بمعانيه ؟!

فإذا كنتم تعقلون ستعرفون أن هذا وحي من الله، ولنرى كيف عانى نبينا صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الذين يصرّحون تارة بتكذيبه ويحتالون تارة في بيان هذا الشأن، فإنهم يمكرون وسيأتينا الكلام عن مكرهم.

قال: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ} الآن قامت عليهم الحجة، واتضح افتراءهم الكذب، سواء في اتهامهم النبي صلى الله عيه وسلم أنه على باطل أو في عبادتهم لغير الله، فهم الآن أظلم الخلق.

الله تعالى يقول لنا: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ} هذا استفهم إنكاري، يعني من أكثر الخلق اعتداءً، من أشدهم اعتداء على الخالق بالكذب علي وبتكذيب آياته، بالكذب عليه: قالوا هؤلاء شركاء الله . وتكذيب آياته يرسل لهم الرسول فيكون هذا ردهم.

ثم يقول سبحانه وتعالى :{إِنَّهُ لا يُفلِحُ المُجرِمونَ} فهذا يقتضي أن هؤلاء أهل إجرام، ويقتضي أنهم لا يفلحون، وهذا تخويف لهم أنهم مهما عاندوا في النهاية ما يتعبون إلا أنفسهم.

ثم أتتنا هذه الجملة معطوفة على الجملة الأولى: {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ} معناها إذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات قالوا وقالوا وقالوا، وهنا {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ} فكلا التصرفين كفر، وهم أظهروا المسألة في صورة أنهم مقتنعين بآلهتهم، وأن النبي الكريم ليس معه دليل، وقالوا: تشفع لنا آلهتنا عند الله، وقد روي أن النضر بن الحارث كان يقول: إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللّات والعزّى.

وهذا كقول العاص بن وائل كان مشركًا قال لخباب بن الأرت وهو مسلم، خباب صنع للعاص بن وائل سيفًا، فيريد خباب أن يقاضيه في أمر السيف فرد عليه الكافر يقول: إذا كان يوم القيامة الذي يخبر به صاحبك -يقصد النبي صلى الله عليه وسلم- سيكون لي مال فأقضيك منه ، سواء منهم على وجه الاستهزاء يقولون يوم القيامة سيشفعون لنا ، أو على وجه الجدّ. عندهم جريمتين :

الأولى تتلى عليهم آيات الله فيقولون للنبي صلى الله عليه وسلم {ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ}.

وهم حالتهم أنهم يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ثم يقولون {هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا}[النحل: 86].

فالله عز وجل يقول لهم: {قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ} وهذا رد من النبي عليهم كما أمره الله، فقد أمره الله أن يرد عليهم بتهكّم، لأي شيء؟ لأنهم يعلمون مالا يعلمه الله، فيخبرون الله بأن لهم شفعاء سينفعوهم، فهم اخترعوا وكذبوا هذه الكذبة وصدقوها وظنوا نفسهم على شيء، ولذا استفهم إنكارًا وتوبيخًا {أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ}: يعني أتُعَلمون الله سبحانه وتعالى عما يشركون، فنزّه نفسه عن لازم كلامهم، فإن لازم كلامهم أن الله سبحانه وتعالى لا يعلم!

{سبحانه وتعالى عما يشركون}: أي عن إشراكهم، فهو منزه عما يقولون وعما يعتقدون.

وتأتي الآية التي بعدها تخبر أن هذه الحالة بدأت مع الناس منذ زمن {وَما كانَ النّاسُ إِلّا أُمَّةً واحِدَةً}، وهذا خبر مهم عجيب من الأخبار التاريخية المهمة، ما الذي أوصل الناس لهذه الحال مع أن الناس كانوا أمة واحدة؟

لقد **{اختلفوا}** وقع بينهم الاختلاف فتحولوا من التوحيد الذي هو الحق إلى الشرك الذي هو الفساد ، فالناس كانوا أمة واحدة على التوحيد فاختلفوا فوقع منهم ما وقع من الشرك، وهذا سبب أن القوم يتوارثونه حتى ذاك الشأن.

{وَلَولا كَلِمَةٌ سَبَقَت مِن رَبِّكَ} : بمعنى لولا أن الله أراد إمهال البشر إلى يوم الجزاء لأراهم كيف يفصل بينهم، وكيف يستأصل المبطل ويُبقي المحقّ.

هذه حالة الناس أن خلقهم الله على التوحيد وجمعهم فيه، ثم اختلفوا بسبب وسواس الشيطان و اتباع الهوى، فكانت هذه أنواع الشرك المتعددة التي وصلوا فأصبحوا بسبب هذا الوهم والك ذب يردون الحقّ، وهذه حال مشهورة في الحق أن طول الأيام والليالي في الأوهام والكذب فيصل الناس أن يردّوا الحقّ بوحي الباطل: **{وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ}**.

وهنا نصل إلى حال اقتراح الآيات فإنها من أسوأ أحوال الخلق، فيها إشعار منهم وكذب أنهم لو أُجيبوا إلى الآيات التي يريدونها فهم مؤمنين، وهذا ثقة في غير مكانها، ثقة بأنفسهم يعني من جهة آرائهم، وثقة بأنفسهم أنهم لو جاءهم الدليل سيؤمنوا، فهم يحضّونه على إنزال الآيات التي يريدونها، ويجعلون الآيات التي يختارونها لو نزلت علامة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم، فيريدون خارقًا للعادة لكن على حسب اقتراحهم، يعني: **{تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ}** [الإسراء: 93] أو **{لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى}** [القصص: 48] طبعا من جهلهم بحقائق الأشياء، ولأن القوم يسيرون خلف خيالهم وأوهامهم ، فهم يظنون أن ربّ العالمين يريد إظهار صدق الرسول –صلى الله عليه وسلم– وأنه يُغضبه تكذيبهم إياه، فمن أجل إرضائهم سيعطي رسوله الآية من أجل أن يصدقوه ومن أجل ألا يبقوا معاندين.

وهذه حالة عجيبة في تفكيرهم! كأن رب العالمين محتاج طاعتهم في عطيهم الآيات ليتَقَنّعُوا بها! وإن لم يفعل ربّنا –تعالى الله عما يقولون– معناها أعجزوه! وهو القادر سبحانه وتعالى ، فتوهموا بذلك أن مُدعي الرسالة التي أتى بها من عند الله غير صادق في دعواه، لماذا؟

لأنهم طلبوا منه آيات ، وقالوا له: إذا جئت بهذه سنؤمن، ظنوا أن ربهم سيُسارع لهم بالآيات ليصدقوا؛ لأنه مُحتاج لهم! ما دروا أن الله قدّر نظام الأمور تقديرًا، ووضع الحقائق وأسبابها ، وأجرى الحوادث على هذا النظام الذي قدّره، وأنّه لا يضرّه سبحانه تكذيب المكذبين ولا عناد الجاهلين، وأن الدنيا دار ممر ستنتهي ويلحقون بربّهم وسيرون في ذلك الوقت الحقّ.

فجعلوا استمرار الرسول على دعوته بالأدلة التي أمره الله بها وعدم تبديلها -على حسب رغبتهم- جعلوه دليل على أنه غير مؤيد من الله، فاستدلوا بذلك على أنه ليس رسول من الله، والله ما أرسل رسوله إلا رحمةً بهم وطلبًا لصلاحهم، وهو سبحانه لا يضرّه تعالى عدم قبولهم الرحمة والهداية.

فلذا قال: {فَقُل إِنَّمَا الغَيبُ لِلَّهِ} هذه مثل آية الأنعام {قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ} [الأنعام: 109] بمعنى أنني لا أملك أن آتي لكم بشيء، فقال لهم: {فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ} يعني هذا حالي وحالكم سأنتظر ما يأتي الله به إن شاء.

وفي الحقيقة هذا تهديد؛ لأن ما يأتي به الهَ على مثلهم ما يكون إلا بلاء وفتنة، وعلى مثل النبي -صلى الله عليه وسلم- ما يكون إلا عطيّة ونصرة.

ثم حكى تمردهم الدائم، وهنا تأتينا آيات عن حالتهم وحالة الناس أيضا مثلهم على اختلاف أحوالهم إلا من رحم ربنا: {وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ}، وهذا معناه كما مر معنا في حال فرعون تأتيهم الآيات التي فيها دليل على أن الله يملك النفع والضرّ، ويحبس عنهم الخير ويعطيهم إياه، كما حصل ما أصاب قريش من القحط سبع سنين بسبب دعاء النبي -صلى الله عليه وسلم ثم كشف الله عنهم القحط وأنزل عليهم المطر، لما أحياهم الله مرة أخرى قاموا يطعنون في آيات الله ويعادون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكيدون له، والقحط الظاهر هو الذي ورد في سورة الدخان على أحد التفاسير.

فهذا معناه أن الناس هذا شأنهم إذا احتاجوا إلى ربهم انكسروا وذلوا واستسلموا واعترفوا، فإذا أعطاهم وكشف ما بهم من ضرّ مكروا، والمقصود أنهم يأتون بالأفكار والأحوال التي يُوهمون بها أن آيات القرآن غير دالة على صدق الرسول -صلى الله عليه وسلم-. وينكرون فيقولون: لو نزلت عليه آية أخرى لآمنّا، وهم كذابين يعاندون ويكابرون ويريدون أن يحافظوا على دينهم في الشرك، فقيل لهم: {اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا} يعين أسرع مكرًا منكم، فهو يمكر بكم ويجعلكم تكيدون فيكون الكيد لكم.

ورسل ربّنا من الملائكة يكتبون ما تمكرون ، فلا تظنون أن النبيّ -صلى الله عليه وسلم- غير محفوظ، فإن ما يخفى عليكم أن الملائكة الموكلين بإحصاء أعمالكم يكتبون عليكم فهم يكتبون ما تمكرون، ويحبس عنكم العذاب فتظنون أنه غير واقع بكم، ثم تزدادون مكرًا، فيأتيكم العذاب فيبهتكم، فتكونوا قد مكرتم ما أودى بكم.

وأتت صورة من ذلك ، في هذه الآية: {وَإِذا أَذَقنَا النّاسَ رَحمَةً مِن بَعدِ ضَرّاءَ مَسَّتهُم} كانت هذه حالتهم، {إذا لَهُم مَكرٌ في آياتِنا} هذا يشبه هذه الحالة التي ستأتي في الآية التي بعدها. {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا} جاءهم كل الذي يريدونه، ثم ماذا حصل لهم؟

{جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ} يعني تأكدوا من الهلاك، ماذا حدث؟

{دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} لما جاءهم الضرّ جاء الاعتراف وقالوا: {لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} اعترفوا أن الله هو وحده الذي يُنجيهم فلو أنجاهم من هذه الحال الحاضرة أقسموا أن يكونوا من الشاكرين. انظروا للمكر الآن:

{فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ}، وهذا دليل على تعجيلهم بالبغي في الأرض مباشرة بعد النجاة.

{إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} وهذا قيدٌ كاشف يُبيّن أن البغي لا يكون إلا بغير الحق. قال ربنا:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم} هذه هي الحقيقة.

{مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} هذا إنما هو في الدنيا الحقيرة، فلا تظنوا أنكم مكرتم بكونكم وعدتم وأخلفتم ، بغيكم على أنفسكم، أريد بكم خيرًا لما أراكم ضعفكم وحاجتكم ، وأريد بكم خيرًا أن تشعروا بها فتنكسروا لربكم وتستمروا على هذه الحال، لكن لما تعاملتم معها على أنها فترة وتمر، ولما رأيتم النجاة بعدما ظننتم أن البحر قد أحاط بكم، ورأيتم النجاة إنما أتت بالحظوظ أو أتت بالأقدار التي تجري، فقيل لهم : عودتكم عن الشكر وعما وعدتم ليس إلا مكرًا بأنفسكم، فأنتم تعتدون على أنفسكم، فهذا الذي أنتم فيه حتى ولو وجدتموه فإنما هو متاع الحياة الدنيا ، فهو شيء يذهب ولم تلبثوا إلا ساعة من نهار، ثم تلقون ربكم فتعرفون كم أضعتم على أنفسكم من فرص التربية، وظننتم أنكم مكرتم لم وعدتم وأخلفتم.

فلذلك يقول الله عزوجل: {ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ} يعني إلينا بعد ذلك معاذكم ومصيركم، تنتهي الدنيا وملذاتها ويأتي لقاء الله، وهذا مما عاناه الرسول –صلى الله عليه وسلم– فإن القوم كانوا يمكرون به يغمزون ويلمزون به ويكذبون رسالته مع أن رسالته واضحة بيّنة، فإن العبد إن واجه قوم قد غمض عليهم شيء فإن من اليسير بيان الغامض، لكن من العسير بيان المُتضح

الذي يكذبه الناس بسبب هواهم، وهذا المكر الذي يفعلونه ما يضرّون به إلا أنفسهم، ونحن نعوذ بالله أن نمكر بآيات الله ، ونعوذ بالله أن نمكر في معاملتنا مع الله أو مع رسول الله، فنعِدُهُ أن نستقيم ثم ننقلب على الدين.

نعوذ بالله من الخذلان، ونسأله الحفظ من النيران؛ فإن مصير مثل هذا لابد أن يكون النار.

نسأل الله أن يسلمنا ويجعلنا ممن عظّم ربّه واتّبع رسوله وصدّق كلامه، وعلم أن كل كلمة في القرآن فهي من كلام الله أبلغها الرسول الكريم، أدّى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده صلى الله عليه وسلم.

إلى اللقاء غدًا ونحن في زيادة من الإيمان وحفظ من الرحمن، اللهم آمين.